

# الندم بين كامو وسارتر

بقلم عبد الصالح الديري

- ٢ -

عود على بدء :

ولا شك في وجود بعض ملامح الانفصال في حياتنا الفردية ذاتها . ولا يمكن ان نفهم الشعور بالحاجة او بالعوز الى الحب اذا اغفلنا انتزاع الطفل من هنائه في بطن أمه كيما يولد بغير حول او قوة في هذا العالم . وهو عالم لا يمكنه البقاء فيه حماية او رعاية . ويهبط مع ذلك الى الاستفناء شيئا فشيئا عن هذه الحماية وتلك الرعاية . ويصبح الحب الانساني من ثم نوعا من الاعتراض الانساني على القسوة التي بدأ بها حياته وتاريخه على الارض . وليس الانفصال مجرد حدث عرضي بالنسبة الى الشعور او الى الوعي ولكنه ماهية هذا الشعور او هذا الوعي . وباهمال حقيقة الانفصال يضيع منا الشعور ذاته . ولكن هذا الانفصال لا يعدو ان يكون احد المشاعر العاطفية . وعلى الرغم من ذلك فهو نفسه ماهية الوعي البشري وليس مجرد حدث عرضي في كيان هذا الوعي . ولذلك فكل انكار للمشاعر العاطفية سيكون انكارا للوعي ذاته .

ملحوظة : نحن نستخدم كلمتي الوعي والشعور بمعنى الكلمة الفرنسية La Conscience والانجليزية Conscionshess والالمانية Bewusstsein ولكننا نخص الجمع في المشاعر العاطفية بمعنى الاحساس الوجدانية ، اي ان جمع الشعور بالمعنى الفلسفي السابق المشار اليه لا يكون على مشاعر وانما يكون باضافة كلمة سابقة تفيد الجمع مثل : انواع الشعور . او اشكال الشعور . وذلك لان كلمة المشاعر لا تشير بوضوح في الاستخدام اللغوي الفلسفي الى ما يقصد الفلاسفة اذا استخدموا كلمة الشعور . وهذا نابع من طبيعة اعتيادنا معاني الكلمات . فقد استطننا عزل كلمة الشعور في الفلسفة عن معناها الادبي العادي ولكننا نعجز حتى اليوم تحقيق ذلك فيما يتعلق بجمع هذه الكلمة . ولهذا يلاحظ القارئ انني تحولت الى استخدام كلمة الوعي كمرادفة لكلمة الشعور حينما اجتمعت في الجملة الواحدة كلمتا المشاعر والشعور حتى لا يضطرب المعنى في ذهن القارئ .

فكل تجاهل للمشاعر العاطفية هو تجاهل للشعور ذاته . ولم يكن افتتان فكرة الذات بفكرة الانا مجرد مصادفة . واي محاولة للنظر الى العاطفيات بوصفها مجرد حالات هي محاولات غير مثمرة وغير مجدية . وتنتج مثل هذه المحاولات عادة عن نزعات لها طابع التمسك بالحلول العقلية وحدها . وتود هذه النزعات عادة افتراض العاطفيات كما لو كانت حالات عاطفية حتى تتخيلها كاشياء تفتري وتقدم اليها الشعور الذهني . ولو كان الالم شيئا لوجب ان نذهب منهج الرواقية في اعتبارها مجرد اسم . ولكن يكفي ان نتألم مرة لنعرف خطأ هذه النظرة . فالالم ليس حالة وليس صفة ضمن الصفات التي نقترحها على طبيعتنا المعرفية . اذ ان الالم لا ينبئنا عن شيء يتعلق بطبيعة المؤثر . وسبب ذلك بسيط وهو ان الالم لا يحاول ان يكتشف بل يشعر ويحكم أي يشعر بما يحكم عليه بأنه مؤذ . فالالم اذن ليس سوى احساس مباشر بلاذى يؤدي الى ايقاف رد فعل مباشر باتخاذ موقف المدافع .

اما العاطفيات فتنتهي الى الشعور العاطفي في مقابل الشعور الذهني حسب التقسيم الذي اقمناه من قبل . ويمكن التعرف بوضوح على ثنائية الشعور الانساني من حيث هو مركز مزدوج للإيماءات التي يردنا اليها . فهو يردنا الى مركز معرفة موضوعية تعد مثلا على

مرة اخرى نريد ان نناقش الاساس الذي تقوم عليه فكرة هذا البحث . لا اود ان استرسل مع التحليل دون ان اضع النقط فوق الحروف ودون ان اثبت من كل نقط الارتكاز الضرورية لتدليل الصعوبات في مثل هذه الموضوعات . ذلك ان مثل هذه المعالجة لموضوعات الفكر الادبي غير مالوفة لدينا في اللغة العربية . وهي فضلا عن ذلك تلقى صعوبة في القبول والاستساغة لدى الكثيرين من بيننا . بل لا تلقى هذه الموضوعات الفهم اللازم لاتصالها بأعلى مستويات الفكر الادبي المعاصر من ناحية ولارتباطها بمعنويات جديدة من ناحية اخرى .

لا شك في ان الوجودية قد عرفت في الشرق العربي منذ وقت طويل . لكن لا يلبث المراقب الادبي ان يحس بظهور نزعات ترمي الى حماية نفسها اكثر مما تحاول العمل من اجل خدمة الفلسفة والفكر . ومن ثم اختفت كل معالم الاصاله الحقيقية التي تحمي سياج الفكر الحر وترمي الى تطور المشارب العقلية السليمة التي تنتمي بالفعل الى دائرة الفلسفة . ولا بد بالتالي من ان نعمل جادين على اعادة تعويد القارئ العربي على استمرار البحوث الجادة في مادة الفلسفة . وليس الفرض من ذلك انشاء تيارات فكرية معينة . بل المقصود فعلا وعملا هو ايجاد العقلية الفلسفية التي كادت تنعدم مع ظهور نزعات باطلة في حقل العلوم الفلسفية .

وعلى الرغم من اني اتعرض هنا لموضوع ادبي خالص فقد احس القارئ معي ولا شك بصعوبة تناول هذه الافكار دون اشارة واضحة الى علاقاتها الفلسفية . لقد صار الادب المعاصر وثيق الصلة بالفلسفة . ومعنى ذلك اننا مضطرون الى الالتجاء في تأكيد نقط الارتكاز الفلسفية التي تساند موضوعات الادب المعاصر . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى لا يمكن الايام بهذه الارضيات الفلسفية دون وقوف طويل عند معنويات الفلسفة المعاصرة المتطورة . وهي صعبة التفسير وصعبة التقريب لانتهاها الى اجواء علمية متقدمة تقدما كبيرا على الافكار الساذجة الاولى التي لا يزال يروجها اصحاب الدراسات الضحلة او الضعيفة في علوم الفلسفة اليوم ببلادنا . وهكذا اجد نفسي مضطرا الى العودة الى تناول موضوع المشاعر العاطفية مرة اخرى . ولهذا ايضا اشير مرة اخرى الى ما سبق التعليق عليه في فقرة الشعور والندم وما ذكرناه بشأن طبيعة الشعور استنادا الى ما جاء في كتاب الاستاذ الكيبي عن « وحشية الوجود » بهذا الصدد .

يقول الاستاذ الكيبي ان كل فلسفة هي في الواقع تفكير في الانفصال او الانشطار . هذا التفكير مائل بوضوح في الاسطورة الافلاطونية عن سقوط الارواح وفي فكرة افلوطين عن مواكب الواحد الاوحد وفي تاملات ديكارت عن الخلق وعن علاقة النهائي باللانهايي . وهو مائل ايضا في تدرج انواع المعرفة عند اسپينوزا وفي تفرقة كانت بين الظاهر والباطن أو التوهم وفي التعارض الذي اقامه فيشته بين الينا والالانا .

بالنسبة الى المعرفة العقلية المهمة بالحقائق غير الشخصية والى مركز الشعور العاطفي بوصفه أنا وجودية حية .

## الندم والغريب :

والندم هو احدى العاطفيات وهو يشيع في الخاطر بناء على احتكاك الذات المستمر بالعالم . فالذات لا تنفصل عن العالم والانا لا تنفصل عن الذات . والانا هي ما يمكن تعريفه عن طريق مجمل ما تحققة على وجه العالم . ولولا ان الانسان يستعيد من حين الى حين تساؤله عما يمكنه ان ينشئه وبينه لاصبحت الانا سجينة لارتباطها بكل ما تحققة في العالم .

وتتمثل قدرة الانسان في التساؤل عما يتم بناؤه عن طريق الشعور بالندم . فالندم هو ما يعين المرء على التحرر من الاستمرار في قبول نظام معين للاشياء ومن الارتباط ارتباطا كاملا بمنطق الاوضاع الخارجية . ولهذا كان الندم حليف الانا دائما ابدا لانه ميزان حرية الانا وعلامة الترابط والخبرة والاستفادة . والانسان لا يستغني عن الندم لانه لا يفقد الاحساس بالحياة متمثلة في الزمن .

فالانسان هو الزمن الذي يعيشه . والزمن هو حياته . وابعاد الزمن التي يعيشها الانسان هي ابعاد القيم التي تحيصل الوجود في

الزمن الى حقيقة منقسمة متقطعة . والندم هو وسيلة الاحتكاك بالعالم من اجل التحقق عن طريق ما يشهده تائب الضمير من ذكريات . وقد يظل تائب الضمير متعلقا بمفهوم الخير والشر او ما يولده الاحساس بالاذى والفصيلة . اما الندم فهو احتضان الارادة وتجديد الاستعانة بها امام المواقف . ولما كان ارتباط الندم بالسلوك الفردي قويا لاشتباهه بالارادة صار الندم اقرب الى ميدان الاخلاق والصق به .

والطابع الغالب على كتابات كامو هو طابع النبوة . تشبه لغة كامو اساليب الانبياء . وهو يصفى من ذاته على اسلوبه كل الهالة التي نراها في لغة الانبياء . وتشعر في كلماته بمعنى التمزق وفي عباراته بمعنى الامة . وشخصية ميرسو التي جعل منها بطلا لروايته

« الغريب » تكاد تكون شخصية انجيلية . ميرسو هو صورة المسيح الذي نستحقه (١) كما يشير الى ذلك بيير دي بواديفر . ويقول دي بواديفر ان رواية الغريب (٢) قد فرضت نفسها علينا كظاهرة طبيعية في ربيع قدر وتميس بباريس اثناء الاحتلال وتساءلنا من ثم اذا ما لم يكن حبنا لها مجرد انعكاس للوحشة التي عشناها والظروف التي مررنا بها في تلك الايام . ولكنه يعود فيقرر انها على العكس من ذلك تحمل طابعها دائما عند كل قراءة وفي كل وقت . اذ انها تحمل ذلك الوضع المحرج الملح نفسه الذي احسنه واقعا حيا في شاعرنا خلال تلك الايام التعمية .

ويعتبر احد النقاد الكبار مثل البيريس رواية « الغريب » جزءا من مرحلة الحسية واللااخلاقية الاولى التي مر بها كامو . ولا شك ان الحسية واضحة وضوحا شاملا في الغريب . اما اللااخلاقية فلا موضع لها ازاء الرواية كاملة . والبيريس نفسه هو الذي يقول بصدد

(١) بيير بواديفر : التحول الادبي ( ج . ٢ ) ص ٢٨١ .

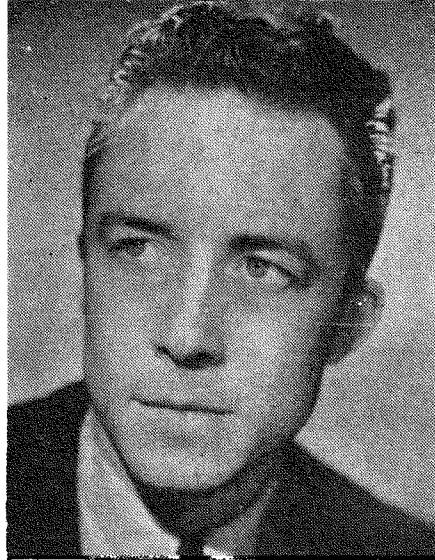
(٢) نفس المرجع ص ٢٨٠ .

قصة الغريب : « لا يبدو الانسان كما لو كان قد خلق ليتلازم مع الحياة التي خلقت له . وهذه هي الحقيقة المزعجة التي أحس بها ميرسو ( بطل الغريب ) احساسا غامضا حتى قبل ان تحمل اليه عجلة القضاء والسجن كل الوضوح الكامل » . (١) ولذلك يمكن ان نقول ان نمرة وضعا ميتافيزيقيا واخلاقيا اساسيا يقوم على الندم بشأن طبيعة الحياة والوجود وان كان هذا الوضع نفسه رفضا حادا صارخا للعالم الانساني .

## رواية الغريب :

وهكذا ترسم رواية الغريب صورتين من صور الندم . الاولى هي الصورة الاصلية التي تتخلل العمل بأكمله كاحساس عام . والثانية هي التي تتشكل من طبيعة البناء الروائي عندما يصل ميرسو الى الوضوح النهائي في السجن والاعدام . وبطل الرواية ميرسو هو شخص لم يصب فلاحا في الحياة ولم يكن موقفا . ويمثل المثقف الفاشل الذي يقوم بعمل وظيفي عادي . ويتلقى برقية بوفاة أمه وهو لا يدري ما اذا كانت قد ماتت بالامس ام اليوم . لقد بعث اللجأ الذي كانت تعيش فيه أمه برقية بخبر الوفاة الى الابن فيسرع الى حضور دفنها ولكنه لا يجد اثرا للدموع في عينيه .

ثم يعيش حياة عادية فيصحب عشيقته الى البحر من حين الى حين ويألف الحياة معها دون ان يكون في الواقع مغرما بها . وتسأله ما اذا كان يريد الزواج منها فيجيب بانه لا منع لديه من الزواج . فتسأله ما اذا كان يحبها فعلا ؟ فيجيب بان هذا لا اهمية له ولكنه على استعداد لان يتزوجها ولو انه لا يحبها .



البير كامو

ويتخذ ميرسو بعد ذلك صديقا اسمه ريمون . وتسوقه الظروف يوما الى ان يصحب صديقه فيقع هذا الصديق في اشكال مع بعض الاعراب بسبب امسور نسائية . واذا بميرسو يورط نفسه في المشاجرة والصفة يضط على زناد مسدس يحمله خصوم صديقه فيقتل احدهم دون ان يتبين لذلك سببا .

وهنا يقتادونه الى السجن والى المحاكمة ، ولا يد له في الامر . ولا يشعر باعجاب نحو ما حدث له . ويدافع عن نفسه دفاعا فاشلا . وتوالت الاحداث في طريقة آلية تلقائية دون ان يملك تغيير شيء مما جرى . ولا يحس بانه ارتكب جريمة عن قصد . وبدلا من ان يستشعر نوعا من القلق احس على العكس باستغراب قائم حزين .

وهو حقا غريب في هذا العالم حيث لم يكن هناك ما يهمه او يتعلق به قط سوى حمامات الحر وليالي الجزائر الرقيقة ومعايشة خليلته . ولا يكاد أحد يطلع على قصة حياته حتى يتبين ان سلوكه سلوك مجرم فعلا . فهو لم يكن يحب أمه وقلبه قاس فيما يتعلق بوفاتها . ثم امتدت قسوته فقتل رجلا في حكاية تثير حولها كثيرا من الشبهات . ولذلك لم يكد القضاة ينظرون في امره حتى حكموا عليه بالاعدام .

في هذه اللحظة بالذات يستيقظ ميرسو . ويحس بالحب العميق للشيء الوحيد الذي يملكه وهو حياته . فيثور اثناء فترة

(١) رينه - ماري البيريس : ثورة كتاب اليوم ( ص ٦٨ ) .

الانتظار للاعدام داخل السجن . ويحس بالندم ويود لو كان قادرا على أن يغير شيئا من الواقع الذي يعيط به . . . يود لو انه تحكم في قوانين الوجود والاحياء والاشياء حتى يغير من واقعه وظروفه . ويتمنى لو كان يستطيع ان يرى حياته شيئا اخر بعيدا عن حقيقة الموت التي صارت بالنسبة اليه حقيقة اولى ووحيدة .

ولكن ندمه يصطدم بالزمن . ولا بد من استعادة الزمن حتى يملك المرء اتيان تصرف مختلف والتأثير على الحوادث من اجل تغييرها وتبديلها . وهو عاجز تماما عن ان يخرج على اطار كل ما يدور حوله من الاوضاع والظروف .

ثم يرسلون اليه القسيس كي ينقذ روحه فيثور ثورة جزع قوي ويشعر بأن عليه ابلاغ القسيس باقدس الحقائق التي تهم البشرية كي تستطيع الخلاص وتسرع بالتصرف على ضوء ما يقوله لها حتى تضمن حياتها الثمينة وتعرف قيمة الاستفادة من هذا المعاش الانساني الغالي . وينبئ القسيس بأن الله لا وجود له وأنه لا يوجد معناش اخر سوى هذا المعاش الارضي . هذه الحقائق البسيطة لم يستطيع احد ان يقولها وكان لا بد ان يواجه الموت كي يملك الشجاعة الكافية لاصلاح الناس وانذارهم بالخديعة الكبيرة التي يعيشونها .

هذا السلوك الايجابي وليد الندم . الندم هو الاحساس الواعي بأن ثمة عملا اخر كان يمكن ان يعمل في هذا الطرف او ذاك . وهذا الاحساس الواعي هو نوع من الزاد الشعوري ازاء الاحداث . وهو ايضا نوع من التمعن في كل ما تقدمه الحياة من فرص وضرب من التذكر لكل ما يرجو المرء ان يستعيد النظر فيه . ويبدو لكل منا انه سيتخذ الاجراء الصحيح او الاكثر صحة امام الفرص التي تعطى لنا الظروف

والاحوال لو تكررت على نحو ما جرت من قبل . ويحس المرء عادة بأن الزمن لم يمهل في اختيار ما يقع عليه اختياره من انواع السلوك . ويحس ايضا بأن الوجود والاشياء الخارجية والاحداث الجارية تدوب بين اصابعه كالتلج دون ان يكون له القيادة المطلق لامورها . والتجربة لا تتم الا مرة واحدة . وظروف الحياة لا تمنح الفرصة مرتين . وحين يحتمك المرء الى واقعه الحاضر يشعر بأن وجوده كان يمكن ان يكون على غير ما هو عليه لو انه اتى من التصرفات ما يخالف ما اتاه بالفعل في هذه الاحوال او في تلك . ومن هنا يتولد احساس دفين بالندم . ويرتبط هذا الندم بالآنا ارتباطا كاملا حتى يعود من حين الى حين فيعاود مرادة خيالها . ولو كان الزمن مواتيا لاستعادة الظروف لكان ثمة احتمال في تصريف التبعات وتحويل دفة الامور واختيار وضع انسب .

ومهما تكن عرضية الحياة ومهما تكن ظروف الشعور بتفاهة الاحداث الجارية فلا يلبث المرء ان يكتشف ضرورة الاصطدام بحقائق الواقع المائل . ولا تلبث الامور ان تمضي مع الزمن ومع التسلسل المنطقي لتطورات الحياة فاذا بها تتعقد واذا به يكتشف ان العرضية وعدم الاهمية التي يستشعرها المرء في قرارة نفسه لا تجدي فتيلا امام الترابطات المائلة بالفعل . ومن هنا تدب في قلبه اليقظة ويكتشف ضرورة ان يقاوم وان يقف وهو واع مدرك يبدل قصارى جهوده من اجل ان ينازل طبيعة العدم والفناء المتغلغلة في قلب المعاش الانساني . وعندئذ فقط يهب ليقول الحقيقة ويهيمه ان يقولها .

- يتبع -

عبد الفتاح الديدي

القاهرة

صدر حديثا

للكاتب الانكليزي الشهير

كولن ويلسون

# ضِيَاعُ فِي سُوهُو

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

رواية رائعة صور فيها مؤلف (( اللامتني )) تجربة نابضة بالحياة قام بها شاب بين غرباء الاطوار والفنانين في احد احياء لندن الشهيرة ، بلهجة جديدة هي سر ابداع الكاتب الذي تترجم آثاره الى جميع لغات العالم .

وقد حصلت (( دار الاداب )) على حقوق ترجمة هذه الاثار الى اللغة العربية ، وستقدم بعد هذه الرواية عددا من كتبه الجديدة التي صدر بعضها ولم يصدر البعض الاخر باللغة الانكليزية .

منشورات دار الاداب

التمن { ليرات لبنانية .